

سيد حميدة العشرى

منذ بدايات طفولتى علمنى أبى أن أتحدى الجميع، وأن أتفوق على الجميع، ومعيار التفوق هو أن أحفظ القرآن، فى الصبح أذهب إلى الكتاب، وطوال ما بعد الظهر أجلس أمام لكان أبى ومعى شيخ أحفظ معه القرآن، وعندما بلغت الخامسة والنصف ختمت حفظ القرآن، وامتلا أبى زهوا، أما أهل القرية فقد أسمونى وعن حق «الشيخ» سيد.
«من حوارہ معى»

الأب فلاح صغير، فدانان ونصف الفدان هى كل ما يمتلك، والحياة فقيرة والمال قليل لا يكفى، فتحدى الفقر وافتتح محلا لتجارة الأقمشة، لانت الحياة قليلا لكن هم الفقر لم يزل جاثما، فتجار الفقراء هم أيضا فقراء، وسكان قريته «القطورى» مركز العياط يعيشون الفقر الحقيقى الذى يجعل من شراء قطعة قماش لجلباب للرجل أو زوجته أو أولاده ترفا، لا يكون إلا فى عيد أو زواج. ويمضى الأب جادا يقضى كل وقته فى عمل مضمن من الصباح الباكر فى الغيط ثم بقية اليوم فى الدكان ومع ذلك فإن الخبز يكفى الأولاد بالكاد، ويكبر سيد فى المدرسة الأولية ومنها إلى مدرسة بنباقدان الابتدائية ستين كيلو مترا يقطعها الطفل يوميا نهابا ثم إيابا، وفجأة اكتشف الأب أن العناد لم يعد ممكنا، حسبها كأى تاجر، باق أمام الولد سيد ثلاث سنوات فى الابتدائية ثم خمس فى الثانوية ثم أربعة فى الجامعة.

وأيقن أنه لا أمل له فى إنجاز هذا المشوار، وحزم أمره وذهب إلى المدرسة سحب أوراق الولد سيد ليقدمها فى مدرسة المعلمين الأولية فى امبابة، وبهذا ضمن أن يتخرج سيد سريعا ثم يعمل سريعا كمدرس إلزامى.

لكن سيد صاحب الإرادة التى مكنته من حفظ القرآن كاملا وهو فى الخامسة والنصف لم يكن راضيا، بل إن الأب حتى لم يبلغه بشىء، فجأة قال له من الغد ستذهب إلى مدرسة

المعلمين بامبابية، كتم الولد غيظه فالأب صارم وحازم، وأمضى سيد خمس سنوات فى دراسة لم يحبها، ولم يبق سوى شهرين على تخرجه مدرسا وهنا اتخذ سيد قرارا حازما، لن يمتحن فى دبلوم المعلمين، ووضع نفسه أمام الأمر الواقع، فتوقف عن الذهاب إلى المدرسة وتوقف عن المذاكرة واكتفى بقراءة روايات وقصص وكتب رافضا ما أسماه فى حوارهِ معى «المستقبل بلا مستقبل» وفجع الأب إذ أتاه خطاب من المدرسة يبلغه بحرمان ابنه من الامتحان بسبب الغياب، أسرع الأب ليجد الابن وقد تمسك بإصرار لا يلين.. بالثانوية ثم الجامعة ولا شىء آخر، قال له الأب إن أمامه أحد خيارين إما فلاح فى الغيط وإما مدرس إلزامى، ورفض الابن، تصادم سيفان لا أحد منهما يلين أمام الآخر، قطع عنه المصروف أما هو فقد انقطع للمذاكرة وبالفعل تأجج حماسا من ذات النوع الذى حفظ به القرآن، وعوض كل ما فاتهُ بأنه حصل فى قفزة واحدة على الابتدائية منازل فى عام ١٩٤٩، وهنا رضخ الأب لإرادة الفتى الذى عوض كل ما فاتهُ فى قفزة واحدة فى عام واحد ثم شهادة الثقافة منازل فى عام آخر، ثم التوجيهية فى العام التالى.. وفتحت له الجامعة أبوابها.

هنا كان الكساد الميرير قد أكل تجارة الأب ولم يعد قادرا على أى إنفاق، فاكتفى سيد بالانساب لكلية الحقوق وعمل فى نفس الوقت سكرتيرا فى مدرسة السعيدية المجاورة للجامعة، وأخذ يقضى يومه قفزا بين المدرسة والجامعة، وفى كل عام مطلوب منه ليس فقط أن ينجح، وإنما أن يتفوق لكى يحصل على مجانية كاملة، وقد كان، قفز السنوات سريعا ليتخرج متفوقا عام ١٩٥٦. خلال سنوات الجامعة توقف طويلا على سلم كلية الحقوق ليحضر مناقشات وحوارات ضارية، وتمحورت الحوارات الفكرية بين الشيوعيين والإخوان، فى البداية مال نحو الإخوان، لكن الحوارات إذ امتدت شهدت صلفا وترفعا وتشددا من الإخوان، ويقول «لاحظت أن العقول مغلقة والقفز إلى الشتائم بدلا من الحجج العقلية شائع، حاولت يوما أن أشارك فى النقاش، وقلت لأحدهم «يا أخى» وجدادهم بالتى هى أحسن» فنظر الأخ لى بسخرية ولم يجب ثم شاهدت عنفا بالأيدى والجنائز فتوجهت لهم منفردا قائلا يا جماعة القرآن يأمرنا بالعفو والصفح ألم تطالعوا الآية الكريمة إذ يخاطب عز وجل موسى وأخاه قائلا «إذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا» فإذا بالأخ المستول يشخط فى قائلا «يا أخى إلهى على عينك، إنت عامل لى فيها فقى» أملتنى الكلمات وأيقنت أن الإيمان سطحي وأن الآيات القرآنية لا تستخدم إلا للدلالة على ما يريدون وليس على ما يفعلون.. تركتهم وأصبحت

شيوعيا، وتوزع وقتي بين أحياء ثلاثة المدرسة السعيدية وكلية الحقوق والعمل الشيوعي»، وفي السنة الثانية من دراسته تزوج صافية ثم أنجب سامي ثم أحمد ومع ذلك كان يقفز سريعا ومتفوقا وفي ١٩٥٦ حصل على الليسانس متفوقا، فقد تخرج بامتياز ورشح وكيلا للنياحة، لكن العدوان الثلاثي داهم الوطن، ارتدى الكاكي وتطوع في الحرس الوطني، تدرّب على استخدام الكلاشنكوف وإلى الجبهة، وصافية تطوعت في الهلال الأحمر، وينتهي العدوان، ونبدأ تصفية الحسابات تقدم للعمل في النياحة فسبقه تقرير أمّني، ممنوع لأنه شيوعي، ثم تقدم لامتحان المحققين بوزارة الخارجية فسبقه ذات التقرير، بل أضيف إليه عبارة تقول «وقد تطوع المذكور في الحرس الوطني لبيت في صفوفه أفكاره الشيوعية» تدخل أحد الجيران لدى الأمن والإجابة أن يكف عن النشاط الشيوعي وأن يكتب تعهدا بذلك يستنكر فيه الفكر الشيوعي، ورفض وافتتح مكتبا للمحاماة في العياط، لكن حملة ١٩٥٩ التي شملت مئات الشيوعيين داهمته وتنقل بين المعتقلات والسجون، سجن مصر، القلعة، العزب في الفيوم، أبوزعل حيث التعذيب الوحشي الذي تفوق على معتقلات النازي ثم انتهى المطاف في سجن المحاريق بالواحات وهناك التقينا لأتعرّف على وجه جاد شديد الجدية، صارم شديد الصرامة، سألته وأنا أحاوره «لماذا لم أرك تضحك طوال فترة السجن» فانفجر ضاحكا وقال «أنا أعرف إزاي أضحك ولكن لا أجد ما يضحكني».

ويبقى ما يجبره على الاكتئاب وهو في السجن، لم يشك لأحد فقط احتفظ بألمه حتى باح بها وهو يحاورني «مصيلحي مدير البوليس السياسي ظل يلاحقني، أنا معتقل مش مسجون يعنى ممكن يفرج عنى فى أى وقت فذهبوا إلى الأب الذى أبى بشدة، أن يضغط على ابنه، ثم ذهبوا إلى صهرى أبوصافية، إما أن تقنعه باستنكار الشيوعية فيخرج، وإما أن تطلب الطلاق وإنما أن يطرد إبنك الضابط من القوات المسلحة. وحضر إلى السجن أحد ضباط البوليس السياسي ليقدم له هذا العرض، صمت سيد، فكر الضابط إيه رأيك؟ وهنا انقض عليه سيد قائلا: رأيى أه، وأوجعه ضربا قاسيا أودع فيه كل عذابات القلعة والعزب وأبوزعل، وكل عذابات فراقه عن صافية وابنه سيد.

أما صافية فقد رفضت، وحاول أبوها أن يحمى ابنه الضابط فتبرأ منها وتوقف عن الإنفاق عليها، لكن صافية مثل زوجها تحدث الحياة واشتغلت في منزلها خياطة، وسيد لا يعرف فيرسل لها رسائل على عنوان الأب لكنه يحتجزها، وتعيش صافية مخلصا حتى دون أن تتلقى كلمة من سيد، ويأتى عام ١٩٦٤ ليفرج عنه مع الجميع، لكنه عاد شخصا آخر،

عديد من أسنانه تكسرت تحت وطأة التعذيب الوحشى، شعره امتلاً شيباً، سامى لم يعرف أباه وأحمد الذى ولد وأباه كان معتقلاً خاف منه لكن صفة بحنانها وإخلاصها كانت معه دوماً وبدأت رحلة حياة جديدة، وافتتح سيد مكتبه للمحاماة.

ثم كانت كارثة حل الحزب، لكن سيد أدانه ورفضه وتحدهه بأن أسهم مع آخرين فى إعادة بناء الحزب من جديد، ومنذ الأيام الأولى للتجمع أتى سيد ليبدأ معنا مسيرة جديدة، ثم لا يلبث أن يعتقل عقب أحداث يناير ١٩٧٧ فقد كان فيها ملء السمع والبصر، ثم تكون الكارثة الثانية وهى انهيار المعسكر الاشتراكى فيفقد سيد شهيته لأى شىء إلا النضال، فواصل، لكن أزمة قلبية داهمته فى ديسمبر ١٩٩١، ونصحه الأطباء بالراحة ولكن دون جدوى، وجهه العابس اكتسى بحزن لا ينتهى وإصرار على نضال جاد.

وفى اجتماعات التجمع كان يخوض معى ذات الدور، كنا هو وأنا نشن هجوماً ضارياً على قوى التأسلم السياسى، والإرهاب المتأسلم على أشده والإخوان هم أيضاً يمرسون نشاطاً على أشده تحت حماية السادات. وعدد من الزملاء فى لجنة محافظة لجيزة يرفضون أى هجوم عليهما فهما خصمان للحكم ولا يجوز أن نواجههما، استعان سيد بمخزونه من القرآن الكريم فكان خير عون لى فى معركتى وفى كثير من اجتماعات الأمانة العامة كان الكثيرون رافضين لموقفنا والأكثر صامتين، ربما عن حيرة أو عدم يقين أو خوفاً من الموج العالى، لكننا تساندنا معاً وواصلنا معركتنا، وكثيراً ما كان يشكو لى من غفلة الزملاء، وكان يتكلم بانفعال شديد وأنا أطلبه بهدوء يحمى قلبه وأؤكد له أن الزمن كفىل بإقناع الزملاء، وفى أحد اجتماعات لجنة محافظة الجيزة «وكان سيد أميناً للمحافظة» اشتبك فى حوار مع أحد الزملاء وفيما يشرح سيد وجهة نظره باغته الزميل بكلمة غليظة «أنت بهذا تدافع عن السادات» انفجر سيد، وكان انفجاره الأخير، ضاق القلب بسخافة الزميل، والرجل التائر دوماً لم يحتملها وأغمض سيد عينيه حملوه إلى المستشفى لكنه كان قد رحل مللاً وسخافة وغفلة من عدم قدرة بعض الزملاء على اكتشاف ما يعتقد هو أنه مكتشف وواضح لأى مناضل عاقل ولا يستحق الجدل.

عزى سيد

ترى ماذا كنت ستقول لهم لو أنك كنت معنا الآن؟